الحديث الثانى

عَن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«إِن اللَّه تعالى قال: مَنْ عَادَى لِىَ وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِى لأُعِيذَنَّهُ. وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ قَبْضِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث رُوى فى صفة الأولياء: جمعُ ولىّ مأخوذ من الولاية التى هى ضدّ العداوة. وأصل الولاية: المحبّة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد.

فَوَلِىُّ اللَّه هو العالم باللَّه، المواظب على طاعته، المخلص فى عبادته.

وقد بيّن اللَّه سبحانه فى كتابه وسنّة رسوله مَنْ هم أولياؤه من الناس،

---

(١) صحيح: خ (٦٥٠٢/ ٣٤٠ و ١١/ ٣٤١)، وانظر شرحه هناك (فتح البارى ١١/ ٣٤٠).

Scanned by CamScanner

فقال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] فكلّ مؤمن تقيّ فهو للّه ولىّ.

ولابد فى الإيمان من الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر، كما أنه لابد فى الإيمان من الإيمان بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين لا نبىَّ بعده، وأن اللّه أرسله إلى جميع الثقلين الجنّ والإنس. فكلّ من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون من أولياء اللّه.

ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ومن الإيمان به ﷺ: الإيمان بأنه هو الواسطة بين اللّه وبين خلقه فى تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه، فالحلال ما أحلّه اللّه ورسوله، والحرام ما حرّم اللّه ورسوله، والدين ما شرعه اللّه ورسوله ﷺ.

فمن اعتقد أن لأحدٍ من الأولياء طرقاً إلى اللّه من غير متابعة محمد رسول اللّه ﷺ فهو كافرٌ من أولياء الشيطان.

وأمّا خَلْقُ اللّه تعالى للخلق، ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم، وهدايته لقلوبهم ونصرهم على أعدائهم، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضارّ فهو للّه وحده، يفعله بما يشاء من الأسباب، لا يدخل فى مثل هذا وساطة الرسل.

أما التقوى: فهى القيام بالواجبات وترك المحرمات، وقد تقوى حتى يفعل التقىّ المندوبات ويترك المكروهات.

Scanned by CamScanner

وقد دلّ على ذلك كلّه كتابُ ربّنا، قال تعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

وليس لأولياء اللَّه شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات. فلا يتميزون بلباس دون لباس، إذا كان كلاهما مباحاً، ولا يوجدون في صنف من الناس دون غيره، بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التّجار والصنّاع والزرّاع.

وأولياء اللَّه تجب موالاتهم، وتحرم معاداتهم، كما أن أعداء اللَّه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم.

واللَّه سبحانه يقول في أول هذا الحديث: «**مَنْ عَادَى لِيَ وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**» أي: فقد أعلمته بالحرب.

قال الفاكهاني: في هذا تهديد شديد، لأن من حاربه اللَّه أهلكه، وهو من المجاز البليغ. لأن من كره من أحبّ اللَّه خالف اللَّه، ومن خالف اللَّه عانده، ومن عانده أهلكه.

قال الحسن: ابن آدم: هل لك بمحاربة اللَّه من طاقة؟

ولما ذكر سبحانه أن معاداة أوليائه محاربة له ذكر بعد ذلك وصف أوليائه

Scanned by CamScanner

الذين تحرم معاداتهم وتجب موالاتهم، فقال: «وما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه»، وهكذا جعل اللَّه أولياءه قسمين:

الأول: من تقرّب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرمات، لأن ذلك كله من فرائض اللَّه التى افترض على عباده. وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين. وأداء الفرائض أفضل الأعمال، كما قال عمر: أفضل الأعمال أداء ما افترض اللَّه، والورع عما حرّم اللَّه، وصدق النية فيما عند اللَّه تعالى.

وقال عمر بن عبد العزيز: أفضل العبادات أداء الفرائض واجتناب المحارم. وأعظم فرائض البدن التى تقرب إلى اللَّه الصلاةُ، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

وقال النبى ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربّه وهُوَ سَاجدٌ»(١).

ومن الفرائض المقرّبة من اللَّه أيضاً عدلُ الراعى فى رعيته، سواء كانت رعية عامّة كالحاكم، أو خاصة كعدل آحاد الناس فى أهله وولده، كما قال النبى ﷺ: «كلكُم راعٍ وكلكُم مسئولٌ عن رعيتِه، الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عَن رَعِيَّتِه، والرجلُ راعٍ فى أهلِه ومسئُولٌ عَن رعيَّته»(٢).

وقال ﷺ: «إن المقسطينَ عندَ اللَّه على منابرَ من نُورٍ عن يمينِ الرحمنِ عَزَّ وجلَّ وكِلتَا يديهِ يمينٌ: الذينَ يَعدِلُونَ فى حُكمِهِم وأهليهِم ومَا ولُّوا»(٣).

---

(١) صحيح: م (٤٨٢/ ١/٣٥٠)، د (٣/١٢٨/٨٦١)، نس (٢/٢٢٦).
(٢) متفق عليه: خ (٨٩٣/ ٢/٣٨٠)، م (١٨٢٩/ ٣/١٤٥٩).
(٣) صحيح: م (١٨٢٧/ ٣/١٤٥٨)، نس (٨/٢٢١).

Scanned by CamScanner

والقسم الثانى من أولياء اللَّه هم الذين تقربوا إلى اللَّه بعد الفرائض بالاجتهاد فى النوافل والطاعات، وترك المكروهات.

وهذه درجة السابقين المقرّبين. وهى من موجبات محبّة اللَّه للعبد، كما قال: «وما يزالُ عَبدِى يتقرَّبُ إلىّ بالنوافلِ حتى أحبّه» ومن أحبّه اللَّه رزقه محبته وطاعته والانشغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه، والزلفى لديه، والحظ عنده.

ومن أعظم النوافل التى يتقرب بها العبد إلى اللَّه تعالى: كثرة تلاوة القرآن الكريم، وسماعه بتفكّر وتدبّر وتفهم.

قال خبّاب بن الأرت لرجل: تقرّب إلى اللَّه ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرّب إليه بشىء أحبّ إليه من كلامه. لا شىء عند المحبّين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذّة قلوبهم، وغاية مطلوبهم.

قال عثمان بن عفان رضى اللَّه عنه: لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم.

وقال ابن مسعود: من أحبّ القرآن أحبّ اللَّهَ ورسولَه.

ومن ذلك كثرة ذكر اللَّه، الذى يتواطأ عليه القلب واللسان، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يقولُ اللَّهُ عزّ وجل: أنا عندَ ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرُنى. إن ذَكَرَنى فى نفسِه ذكرتُه فى نفسِى، وإن ذكرنى فى مَلأٍ ذكرتُهُ فى ملأٍ هُم خيرٌ منهُم، وإن تقرّبَ منى شِبراً تقربتُ

Scanned by CamScanner

إليه ذِراعاً، وإنْ تقرّبَ إلىّ ذراعاً تقرّبتُ منهُ بَاعاً، وإن أتانى يَمشِى أتيتُه هَرْوَلة»[1].

وهذا التقسيم لأولياء اللَّه قد نطق به كتاب ربنا فى آخر سورة الرحمن، وأوّل الواقعة، وفى سورة الإنسان، والمطففين.

وإذا كان أولياء اللَّه هم المؤمنين المتقين، والمؤمنون يتفاضلون فى الإيمان والتقوى، فهم أيضاً يتفاضلون فى الولاية، فأفضلهم الأنبياء، وأفضل الأنبياء المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم، وأفضل أولى العزم خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم أجمعين، محمد الأمين ﷺ، وأفضل الأولياء بعد الأنبياء ورثتهم وهم العلماء، كما قال ﷺ، فالعلماء هم أولياء اللَّه، كما قال الإمامان الشافعى وأحمد: إذا لم يكن العلماء أولياء اللَّه فليس للَّه ولى. وإذ الأمر كذلك وجب على الأمة أن تعرف للعلماء حقهم، فإنهم خلفاء الرسول من أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وهم للناس بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر.

وقوله سبحانه فى الحديث: «فإذا أحببتُه كُنتُ سَمعَهُ الذى يَسمَعُ بِه، وبَصَرَهُ الذى يُبصرُ به، ويَدَهُ التى يَبطِشُ بها، ورِجلَهُ التى يَمشِى بِهَا».

والمراد من هذا: أن من اجتهد فى التقرّب إلى اللَّه تعالى بالفرائض ثم بالنوافل قرّبه اللَّه إليه، ورقّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد اللَّه كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة اللَّه تعالى ومحبته وعظمته، وخوفه ومهابته وإجلاله، والأنس به والشوق إليه. فيمحى من ذلك القلب كل ما سوى اللَّه، حتى لا يبقى للعبد شىء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه.

فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق باللَّه، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به سبحانه.

---

(١) متفق عليه: خ (٧٤٠٥/ ٣٨٤/ ١٣)، م (٢٦٧٢/ ٢٠٦١/ ٤)، ت (٣٦٧٣/ ٢٣٨/ ٥).

Scanned by CamScanner

والمراد بذلك أن اللَّه يوفّق العبد فى الأعمال التى يباشرها بهذه الأعضاء، ويسّر المحبة له فيها، بأن يحفظ جوارحه عليه، ويعصمه عن مواقعة ما يكره من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى اللَّه عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعى إلى الباطل برجله، فلا تتحرك له جارحة إلا فى اللَّه وللَّه، فهى كلها تعمل بالحق للحق.

وقوله: «**وَلَئِنْ سَأَلَنى لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ استَعَاذَ بِى لأُعِيذَنَّهُ**» يعنى أن هذا الدعوة لكرامته على اللَّه، كما كان كثير من السلف الصالح معروفاً بذلك. إياه، وإذا استعاذ به من شىء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب المحبوب المقرّب له عند اللَّه منزلة خاصة تقتضى أنه إذا سأل اللَّه شيئاً أعطاه

يدل عليه ما جاء فى الصحيح: أن الرُّبيِّع بنت النضر كسرتْ ثنيّةَ جارية، فعرضوا على أهلها الأرْش فأبوا، فطلبوا منهم العفو فأبوا، فقضى بينهم رسول اللَّه ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر أخو الرّبيّع: أتكسر ثنيّة الربيع؟ والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيتُها. فرضى القوم بالأرش. فقال النبىّ ﷺ: «**إنَّ مِن عِبَاد اللَّه مَن لو أقسَمَ عَلَى اللَّهِ لأبرهُ**»[1].

فإن قيل: إن جماعة من الأولياء والصالحين دعوا وبالغوا ولم يجابوا!

فالجواب: إن الإجابة تتنوع، فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع ولكن يتأخر لحكمة، وتارة قد تقع الإجابة ولكن بغير عين المطلوب، حيث لا يكون فى المطلوب مصلحة ناجزة، وفى الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منها.

وقوله: «**وما ترددّتُ عن شىءٍ أنا فاعلُه ترددّى عَن قَبضِ نَفسِ المؤمنِ، يكرَهُ الموتَ وأنا أكرَهُ مُسَاءَتَهُ**».

Scanned by CamScanner

المراد أن اللَّه قضى على عباده بالموت، والموت هو مفارقة الروح الجسد، ولا يحصل ذلك إلا بألم عظيم جدًّا، وهو أعظم الآلام التى تصيب العبد فى الدنيا، فالعبد يكره الموت لما فيه من المساءة، واللَّه يكره ما يكرهه العبد، ولكن قضى عليه بالموت، فصار الموت مراداً للحق من وجه، ومكروهاً له من وجه.

وهذا حقيقة التردد، وهو أن يكون الشىء الواحد مراداً من وجه، مكروهاً من وجه، وإن كان لابد من ترجيح أحد الجانبين كما ترجح إرادة الموت لكن مع وجود كراهة مساءة عبده...

وبعد:

فالناس مع الأولياء ثلاثة أقسام: طرفان ووسط.

فالطرف الأول أهل الإفراط الذين أفرطوا فى محبة الأولياءفأخرجوهم من البشرية وخلعوا عليهم وصف الربوبية والألوهية، ولذا تراهم حول قبورهم عاكفين، بهم يستغيثون، وإياهم يدعون، لأنهم يعتقدون أنهم فى الكون يتصرفون، فهم فى اعتقادهم يعطون ويمنعون، ويعزّون ويذلّون، ويولّون ويعزلون، وهم بذلك بالكفار متشبهون، حيث قالوا:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وقابل هذا الطرفَ **الطرفُ الثانى أهل التفريط** فأنكروا الولاية والكرامة، وناصبوا أهلها العداوة، وسبّوهم بقصد تنفير الطرف الأول منهم، حتى يرجعوا عما وقعوا فيه من الشرك بسببهم. والطرفان مذموم، والوسط المحمود هو الإيمان بأن اللَّه ولىّ الذين آمنوا وهم أولياؤه، وأن اللَّه قد يجرى

Scanned by CamScanner

على يد أحـد أوليائه شـيئـاً من خوارق العـادات، التى تعرف بالكـرامات، لحكمة أرادها سبحـانه وهو العليم الحكيم. وأن هؤلاء الأولياء لا يمكن لهم أبداً أن يخرجـوا عن دائرة العبودية إلى مرتبـة الألوهيـة، بـل نقول فيـهم ما قـال اللّه فـى ملائكتـه:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

* * *

Scanned by CamScanner